جماليات المنحى الواقعي والتخييلي في رحلة رابح خدوسي "انطباعات عائد من مدن الجمال"

The aesthetics of the realistic and imaginative approach in Rabah Khadoussi's journey "Impressions returning from the cities of beauty"

موسى كراد*

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)

kerradmoussa@gmail.com

تاريخ الارسال:2024/10/30	تاريخ التقييم:2024/11/27	تاريخ القبول:2024/12/15

الملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية الاشتغال على رحلة الأديب رابح خدوسي "انطباعات عائد من مدن الجمال" من خلال استجلاء جماليات المنحى الواقعي والتخييلي فيها، فالرحلة تنطلق من الواقع واصفة بيئته وأزمانه وأماكنه ومشاهده، إلا أنَّ التسجيل الواقعي فيها لا ينفي أبدا وجود عنصر التخييل الذي يلبِس الرحلة الصبغة الأدبية السردية البعيدة عن التوثيق التاريخي والوصف الجغرافي.

كلمات مفتاحية: الواقع؛ التخييل؛ أدب الرحلة؛ رابح خدوسي؛

Abstract:

This research paper attempts to work on the journey of the writer Rabeh Khadousi, "Impressions of a Returner from the Cities of Beauty," by clarifying the aesthetics of the realistic and imaginative aspects in it. The journey starts from reality, describing its environment, times, places, and scenes. However, the realistic recording does not negate the presence of the element of imagination that dresses the journey with a literary character. A narrative far from historical documentation and geographical description.

Keywords: reality; Imagination; Travel literature; Rabeh Khadoussi;

*المؤلف المراسل:

1. تمهيد: الرحلة: (مفهومها، حضورها بين الواقع والمتخيل):

يعد فن الرحلة من أقدم الفنون والأشكال التعبيرية التي اعتنى بها الأدباء واهتموا بها وجعلوها وسيلة لنقل تجاربهم ورحلاتهم بمختلف أنواعها، وقد شهد هذا الفن تطورا ملحوظا حيث انتقل من كونه تأريخا ووصفا جامدا خاليا من أي خيال إلى كونه أدبا خالصا يجمع بين التأريخ والجمال الفني، وها ما جعل الناقد عبد الله ركيبي يوضح الفرق بين التأريخ للرحلة وأدب الرحلة فيقول: " فإذا عَنِي الرحالة بتصوير شعوره بوصف ما شاهد، أو حاول استخلاص فكرة معينة؛ فإن رحلته حينئذ تدخل في مجال الأدب لأنه ينفعل، ويتأثر، ويصور لنا هذا من خلال عمله الأدبي، ولكنه حين يصف الأشياء بنوع من التجرد فهنا يصبح مؤرخا لا أديبا، لأن حظ الخيال في رحلته يكون قليلا ."[1]، بل حتى منعدما نادرا في أحايين كثيرة.

إنَّ الدعوة لأن يكون أدب الرحلة فنا وخيالا ويحمل جمالية وإبداعا لا يعني أن يستدعي الرحالة أحداث ومشاهد كاذبة ولا تمت بصلة إلى الواقع.. " فالصدق في العرض مطلب فكري وفني"[2]، فالرحلة خطاب يتميز بالصدق الواقعي، لأنها ترتبط بالواقع والبيئة التي تنتمي إليها.

وهي نقل أمين صادق للواقع بصورة أدبية وجمالية يحاول من خلالها الرحالة أن يعبر عن أحداث وحوادث ومشاهد وأخبار متنوعة ومتفرقة عاشها وكان حاضرا فيها أو قريبا منها أو رويت له. وأهم ما يميز هذا النقل والتسجيل الحي لكل ما يراه أو يسمعه أثناء رحلته هو التفاعل والتأثر والتأثير بل يصل به الأمر لعقد مقارنات بين بيئته المحلية التي ينتمي إليها والأماكن التي رحل إليها، منتقدا تارة ومعجبا تارة أخرى.

إنَّ عملية تحويل صور الرحلة من الحركة والانتقال والمشاهدة إلى كتابة فنية وخطاب أدبي جمالي يتطلب حضور مجموعة من الشروط أهمها أن يتوفر الرحالة على عدة ثقافية وعلمية وأدبية[3]، بالاضافة إلى عنصر الشعور والعاطفة التي تصاحب عملية التسجيل والتوثيق والتي تمنع الوصف من أن يكون تسجيلا تاريخيا مفرغ من كل احساس[4] ومشاعر إنسانية اجتماعية.

فالرحلة كما يصفها النقاد (شعيب حليفي) هي نص سردي، يتراوح بين قطبي الواقعي والخيالي، بأسلوب يسجل ويصف رحلة انتقال السارد /المؤلف/ من فضاء لآخر داخلي أو خارجي على المستوى الفعلي[5] وهي مناط الدراسة النقدية والأكاديمية

إنَّ التطور الحاصل في حقل التجارب الإبداعية خاصة ما تعلق بتداخل الأجناس الأدبية وتضايفها، جعل من الصعوبة بمكان التفريق بين هذه الأنماط والأشكال التعبيرية، أدى ذلك لظهور ما يسمى بنظرية النقاء الأجناسي، هذا ما جعل النقاد يعتبرون الرحلة "فنا قائما بذاته، نظرا لتعدد تيماتها. وتنوع مضامينها، وصورها الواقعية منها والمتخيلة؛.."[6].

فقد تنوعت موضوعاتها بين الدين والثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلوم والتاريخ والثرات والمعاصرة، وهذا ما جعلها "نصا مفتوحا على كافة الحقول بأشكال مكتملة أو جزئية"[7]، لكن ورغم هذا التمظهر الواقعي في النص الرحلي، إلا أنّ ذلك لا ينفي وجود المتخيل واللاواقع فيها، الذي يجعله نصا أدبيا سرديا ممتعا.

من هـذا المنطلق يـأتي حديثنا عن رحلة الكاتب والأديب رابح خدوسي الموسومة "انطباعات عائد من مدن الجمال "من خلال محاولة الغوص في واقعها، والوقوف عند المتخيل فيها.

2. جمالية المنحى الواقعي:

- **إطار الرحلة:**

الرحلة مثلها متل كل الفنون الأدبية لها مسار للبداية والوسط وآخر للنهاية، وعند العودة إلى رحلة رابح خدوسي، فإننا نجده قد سار وفق مسار واضح مع سبق التخطيط والرصد، فرحلته لها ثالوث معلوم -بداية وسط ونهاية .

ويمكن تفصيل ذلك كالتالي:

- ✓ **المقدمـة**
- ✓ **الذهـاب**
- ✓ **الوصـول = المتن**

- ✓ **العــودة**
- ✓ **الخاتمــة**

أ- <u>خطـاب التقــديم:</u>

إنَّ الفائدة الأدبية الجليلة للمقدمة بكونها العتبة النصية الأولى التي تربط الأديب والمتلقي، إذ فيها يسجل أسباب قيام رحلته وأهدافها المرجوة، بل نجد فيها أيضا مسار رحلته والمخطط المسبق لها خاصة في الرحلات المنظمة من جمعيات ومنظمات علمية وتربوية.

ومن المؤكد أن كاتب الخطاب المقدماتي هو صاحب الرحلة بنفسه، إذ تعد المقدمة قطعة أساسية في الرحلة، ويمكن أيضا أن نجد مقدمة أخرى عادة ما يكون صاحبها هو مالك دار النشر، أو من أصدقاء الأديب صاحب الرحلة ومضمونها لا يعدو أن يكون مدحا للمؤلف ووتذكيرا بخصائص رحلته وظروف إقامتها .. الخ

وهذا ما جاء في رحلة الأديب رابح خدوسي، إذ ضمّنَها مقدمتان، الأولى جعلها للكاتب أبو نزار الظواهري – وهو أحد أصدقائه – والثانية له.

فأما التقديم الأول فنجد فيه التعريف ألأجناسي للمؤلف وصاحبه، حيث يشير صاحبه أنَّ هذه الصفحات " تندرج فيما يعرف بأدب الرحلة، وهو فن معروف يدرس في برامج الدراسات الأدبية العالية، كما اشتهر به الرحالة المغاربة منذ زمن بعيد كابن بطوطة وابن جبير وامثالهما."[8]، مشيرا لحب صاحب الرحلة لبلده الجزائر وغيرته عليها وعلى أوضاعها خاصة الثقافية والفكرية، وعدم خوفه وخشيته من قول الحق والدفاع عنه أمام أصحاب القرار والسلطة، تنويه وإشادة بالمؤلف الإنسان والأديب البارع الصادق بكلماته وأسلوبه. وفي الختام يقدم له باقة شكر وتقدير لإخلاصه وتفانيه في خدمة بلدة وأمته.

أما عن الرحالة رابح خدوسي فقد صدّر رحلته بتقديم جميل بقوله: "الكتابة عن الرحلة رحلة ثانية، والحديث عن السفر سفر آخر في بحر الذكريات والوجدان والماضي "[9]، إنها انطباعات عائد من مدن الجمال التي زارها الرحالة والتي لا يؤكد أنها " رحلات أدبية بمعنى الكلمة "[10] بل هي " ومضات متنوعة يشع منها الفكر والأدب والتربية والفن والتاريخ..الخ"[11] هي ومضات من جولات ذكريات دغدغت مشاعره، وحركت أشجانه، وأثارت

لذة الكتابة لديه ليكتب ويسترجع هذه الذكريات التي لم يرتح منها " إلا بعد الكتابة "[12]، فارتاح منها وارتاح بها أيضا وجعلنا في زمرة المرتاحين.

في الرحلة ما تبقى من ذاكرة العمر كما يقول رابح خدوسي، بعد نسيان الكثير من الذكريات بتفاصيلها، فهما مقدماتان – أبو نزار ورابح خدوسي - امتازتا بالقصر والدخول المباشر في موضوع الرحلة، بعد أن وضع لها صاحبها عنوانا يبدو معبرا ومركزا، فيه من الدلالة والإشارة للمضمون، ما يغني عن الخطاب المقدماتي الطويل.

والرحلة كغيرها من فنون التعبير الأخرى تحمل خطابا يتميز بتعـدده وتنوع مضامينه، واختلاف مستوياته، وهذا الخطاب ينتظر متلقيا فاعلا وفعالا، لذا فإنَّ الرَّحالة يضع هذا المتلقي نصب عينه، محاولا وضع الخطوط الطويلة لرحلته مبينا دوافع وأهداف هذه الرحلة علَّها "تفيد القارئ الكريم في جانب من الجوانب، فقد صدق من قال: " لا يعرف وطنه من لا يعرف الأوطان الأخرى"."[13]، مذكرا بشغف القارئ "بقراءة الرحلات واليوميات والمذكرات الشخصية، لأنه يجد فيها تعويضا عن حالة الحرمان التي يعيشها في قوقعته."[14].

والتقديمان المقدمان يعتبران بحق اختصارا موفقا دالا على مضمون الرحلة، مرتبطا بصلبها، دلا فيهما باختصار عن أهمية الحديث عن عادات الشعوب وتقاليدهم، وعن معالم الفن والجمال عند بعض الشعوب مفرقا بين جمال المدن وجمال التعرف على الشعوب الذي لا يكون بالمخالطة والمعاشرة يقول: "فالمدن في رأي كالقصائد والنساء، يكتشف مواطن الجمال فيها للوهلة الأولى، أو بالأحرى من النظرة الأولى ثم تصبح مألوفة بما فيها، لكن الشعوب ينبغي معاشرتها برهة معتبرة من الزمن للتعرف على حقائقها."[15].

إذن يعد " خطاب التقديم وما يتضمنه من عناصر يمكنها تأطير النص، وإضاءة بعض جوانبه ومساراته، لفهم قضايا مرتبطة بالكتابة "[16].

ونجده يختم تقديمه – على غير العادة في كتب الرحلات– بما يشبه الذم، حين صرح بأن " الاستغراق في المدح والمبالغة في الثناء يعتبران نوعا من التجميل يضر بالموصوف، لأنه يعطي صورة ثانية قد تكون غير حقيقية "[17]، وهذا تنبيه وتذكير بأن الصدق والشهادة الحقة هو ما يجعل الرحلة ذات مصداقية ومقروئية محترمة.

إنَّ قراءة بسيطة للرحلة وخطابها المقدماتي عند الأديب الرحالة رابح خدوسي تجعلنا ندرك أن مؤلفها على وعي نقدي تام بالجنس الأدبي الذي يكتب فيه، فقد أصبغ رحلاته ومقدمته باشارات ودلالات خاصة التصوير الواقعي ووالوصف التخييلي الجمالي وتوظيف المعجم الدال على الرحلة كالسفر أو الانتقال أو التوجه.

ب- خطاب المتن:

يمكن عد متن الرحلة المصب الذي يورد فيه المؤلف كل الوقائع والأخبار والمشاهد وما جمعه وما صادفه من حقائق وعجائب وغرائب، فيكون بذلك متن الرحلة مرآة عاكسة نرى من خلالها التفاصيل والإشارات والجمال بأسلوب بديع يجمع بين الواقع والخيال.

ومن البديهي هنا أن نسلم نقطة انطلاق المتن هي الانطلاق الفعلي للرحلة، وبفضلها يتمكن مؤلف الرحلة من " افتتاح السرد، وعقد ميثاق القراءة مع المتلقي"[18] بحيث يدخله في جو الرحلة ودهاليزها ويشركه في عملية الابداع من خلال التفاعل وعقد قراءات ممكنة للرحلة محاولا الفهم واستخلاص العبرة والفائدة.

ومن أجل تقديم متن الرحلة يستدعي المؤلف الرحالة مجموعة من الأدوات والتقنيات المتعلقة بالجانب الواقعي والتخييلي؛ من ذلك تحري الصرامة التاريخية والدقة في تقديم الخبر من خلال ذكر التاريخ الفعلي وتحديد الأماكن بالأسماء والزمان بالشهر واليوم والوقت، وبالاعتماد على ظاهرة الإطناب –أسلوبيا- حيث ما استدعت الضرورة إليه خاصة عند يحاول المؤلف وصف مكان أثار إعجابه، أو حرّك شجونه ومشاعره فجعله يقارن بين ما رآه وواقعه المر والمؤسف.

ولقد تنوعت القضايا التي احتواها متن الرحلة فمنها الثقافية والفكرية ومنها القضايا العلمية والتعليمية، ومنها القضايا السياسية.

سنبدأ بالقضايا الثقافية والفكرية:

حيث كانت رحلات الأديب (رابح خدوسي) لغايات ثقافية فكرية، فقد كان محاضرا ومحاورا للعديد من المؤتمرات والملتقيات والاجتماعات ممثلا للوفد الجزائري، في كثير من المدن التي زارها.

يتحدث الرحالة عن زيارته لدمشق " في ثلاث مناسبات ثقافية.."[19]، بصفته ممثلا للجزائر "في اجتماع الأمانة الدائمة للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب.."[20]، وحضوره لندوة الثقافة والديموقراطية، وما أثير حولها من نقاط حساسة مست الوضع العربي والاسلامي، وقد كان للكاتب نصيب من النقاش والتدخل في الندوة، حيث قدّم في مداخلته عتابا ولوما للأشقاء العرب الذين " طالما حفلت بهم في أعيادها منذ الإستقلال سواء عندما كانوا ضمن البعثات التعليمية أو خلال الدعوات الثقافية الخاصة، وعندما ألمت بها المحنة 1993-1997 لم تجد صوتا منهم مؤازرا أو مواسيا.."[21]، بالإضافة إلى تفصيل الكاتب لمجمل المحاضرات التي ألقيت في الندوة، والتي خرج منها بملاحظة مهمة جـدا وهـو أنّ " أشغال الندوة تغلب الجانب التنظيري التاريخي على الجانب التطبيقي الراهن، واقتصارها على أعضاء الاتحادات التي هي في بعض البلدان تكون تابعة للحكام، وبالتالي تكرس الاستبداد بصورة أو بأخرى.."[22].

في شأن ثقافي آخر كانت رحلته نحو بغداد للمشاركة في ندوة مستقبل ثقافة الطفل، ومهرجان الشعر العربي، وذلك أثناء عقد المؤتمر الحادي والعشرون للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في الفترة الممتدة من 18 إلى 6 جانفي 2001. وأثناء السفر والرحلة عبر الطائرة يصف لنا الأديب حالة الخوف والوجوم تعتري الأدباء والكتاب، فالمنطقة تعيش على وقع القذائف والصواريخ والرصاص الذي لا تعرف مصدره واتجاهه، حيث يتساءل الكاتب بكل واقعية،

" ماذا لو أسقطت الطائرة؟

أكثر من سبعين أديبا وكاتبا عربيا ستخسرهم الثقافة العربية مرة واحدة ؟!

كيف لا تعود هذه الطيور إلى أعشاشها؟."[23]،

وجاءت الرحلة في شقها الأول وصفا وسردا لمجريات الندوة والمداخلات المقدمة فيها، بالإضافة إلى مداخلة الكاتب والاستحسان الذي لاقاه من طرف الكتاب والمبدعين.

وفي زيارته لعمان العاصمة وجرش المدينة، حضرت المصادفة أن كانت عمان عاصمة الثقافة العربية 2002، حيث كانت " المصادفة المثيرة للأردن كانت فكرية، إذ وجدنا العاصمة عمان تلبس حلة وحلي عروس العرب الثقافية.."[24]، وما وجده في مهرجان جرش

الثقافة والعلوم حيث يدعى فيه الادباء والفنانون من كل بلدان العالم، أمثال " سميح القاسم (فلسطين) ممدوح علوان (سوريا)، عياش يحياوي (الجزائر)، علي شمس الدين (لبنان).."[25]

كما أقيمت محاضرات وندوات عديدة، منها ندوة تحت عنوان (نحن والآخر) رؤية معرفية باتجاهين " أقيمت بمركز الحسين الثقافي بالعاصمة عمان، دعي لها سبعة مفكرين من البلدان العربية ومن إيطاليا وفرنسا وبريطانيا "[26].

أما في زيارته لمدينة مليانة، فكان نصيب الثقافة فيها وافرا، حيث يصفها قائلا :" الثقافة بأنواعها هي أوكسجين مليانة الذي تتنفسه بدءا من سوق الأحد ومظاهره الاجتماعية والثقافية، إلى مجالس الذكر بالزاوية، مرورا بمفتشية التعليم التي كانت تنظم محاضرات لرجال التربية والتعليم وتقيم مسابقات وطنية حول عالم الطفولة 1988_1994، وفرقة المسرح (الصرخة) محفوظ طواهري، ساهمت هذه المنابر بقدر كبير في الحفاظ على الوتيرة الثقافية والمسيرة الحضارية للمدينة.."[27]، مما جعلها قبلة للأدباء والمثقفين من كل ربوع الوطن.

من القضايا العلمية والتعليمية:

جاءت رحلات (رابح خدوسي) في معظمها من تنظيم لجنة الخدمات الاجتماعية، ومن قطاع التربية والذي يعد مفتشا للتعليم فيه، مع ثلة من الأساتذة والمعلمين، فكانت رحلته إلى عدة دول عربية وأجنبية تمثيلا لوزارة التربية والتعليم مكلفا لأداء مهام تربوية وتعليمية تحت إشراف الدولة الجزائرية، أو إثراءً للتجربة الجزائرية في ميدان التعليم، لذا شغلت القضايا التعليمية والعلمية حيزا محترما في رحلاته التي جاب بها بلدان ومدن كثيرة، واصفا جمالها، معبرا عن تجارب هذه الدول في مجال تكنولوجيات التعليم وخبراته الحديثة ناقلا هذه الخبرات إلى بلده الجزائر.

كانت رحلته إلى مصر في شهر أوت 2002 " ضمن وفد تربوي في مهمة رسمية بتكليف من وزير التربية الوطنية السيد صالح نور الدين..."[28]، وفي أثناء وصوله إلى القاهرة تحدث الكاتب عن حالة التعب والإرهاق التي أصابت الوفد التربوي " غير أنّ أعضاء الوفد لم يتأثروا بها، لأن درجة حرارة شوقهم لاكتشاف عالم التكنولوجيات الحديثة وكيفية

تطبيقها في مجال التدريس بالنظام التعليمي في المدارس المصرية كانت أكثر شدة.."[29]، حيث يبدأ الكاتب بوصف أهم انجازات الدولة المصرية ممثلا في الهيئات العلمية والتربوية فبدأ بالمركز التربوي لتطوير المناهج والذي لخص مهمته في " تحليل البرامج والمناهج التربوية من حيث الأهداف والغايات، وتحويلها إلى وسائل تعليمية مشوقة، تحرص على الفعل والتفاعل، وعلى التفاعل الثقافي التكنولوجي بطريقة تعتمد على الفهم والإدراك والإبداع، بعيدا عن التلقين والتقليد "[30]، وغيره من مراكز التعليم وتطبيق التكنولوجيات الحديثة في مجال التعليم وكلها تحمل شعار (كن ولا تكن).

وقد قدّم الأديب شكره وامتنانه للسلطات المصرية على حسن ترحابها وكرم ضيافتها، وحسن إفادتها في" تمكيننا من الاطلاع على التجربة المصرية في مجال إدخال التكنولوجيات الحديثة على قطاع التعليم..."[31]، للإفادة المدرسة الجزائرية، ويرجع الكاتب عوامل نجاح التجربة المصرية في الجانب التكنولوجي في الارادة السياسية " التي تتبنى شعار كن أو لا تكن وتوفير الوظيفة المناسبة لكل الكفاءات وإشراكها في التنمية الوطنية، دون إقصاء لسبب حزبي أو عرقي أو ديني أو جهوي.. الخ وعدم المفاضلة بين القطاع العمومي والقطاع الخاص، والإجماع على حب مصر والإخلاص لها "[32].

أما رحلته إلى عمان فكانت رحلة تربوية، حيث جاء وصفه لعمان بأنها "عمان الأصالة والحداثة والانسجام الفكري والعمراني... عمان ... قطب تكنولوجي، ومركز علمي في المنطقة كلها... هل تصدقون؟ ! حكومة إلكترونية، رقمية، مجتمع تكنولوجي بعد سنوات... هل تصدقون؟ !."[33]، يورد الكاتب حدثا أنْ تبرع رجل أعمال بـ " 20 ألف جهاز كمبيوتر إلى المدارس، ورجلا آخر جهز كل المدارس بإحدى الولايات بوسائل الإعلام الآلي، وعام 2005 كان مقررا كآخر اجل لآخر مدرسة أردنية ستستعمل شبكة وسائل الاتصال الحديثة "[34].

ت- <u>خطاب الختام:</u>

كما للرحلة بداية وانطلاقة فلها أيضا خاتمة ونهاية، من منطلق أن المرء لا يرحل إلا ليعود؛ ذلك أن مسار الرحلة له ترتيبه الذي يفرضه الواقع والتاريخ، فقد قدّم رابح خدوسي في خاتمة رحلاته على مدن الجمال شكرا واعترافا لفضل الأماكن التي زارها ومكث فيها أياما قلائل وذلك لأنها " أضافت إلى عمري عمرا جديدا، لذا فأنا مدين لها وشاكر لكل

من كان سببا في القيام بهذه الرحلات "[35]، فهذا تنويه وإشادة بجمال المدن ومن كان سببا في تنظيم هذه الرحلات.

ومع ما ذكر الأديب من مظاهر للجمال والانطباعات التي ساقها في احتفائياته بالمدن التي زارها، إلا أنه في الخاتمة اعترف أنّ شوقه إلى الجزائر" كان يهزني دائما في اليوم السابع من سفري، فلا أطيق صبرا بعد ذلك، لأن الجزائر لا تمنحي رخصة غياب لأكثر من أسبوع ليبدأ القلب والوجدان في الخفقان."[36]، ويعقب هذا الاعتراف تصريح أو اعتراف آخر، بأن " جمال الجزائر يختزل جمال كل الأمكنة التي رأيتها، باستثناء الجمال الروحي للبقاع المقدسة"[37]، فنظرة واحدة إلى أفق جبال الشريعة وغروب تاغيت تعادل ألف جولة وجولة في بلدان العالم. كما قدّم اعتذاره للمدن التي لم يكتب عنها لسبب أو لآخر.

هكذا يتضح جليا، أن الرحلات، تبنى على تخطيط معماري واحد، ركائزه الأساسية هي: المقدمة، المتن، والخاتمة، وإنْ كان التعامل معها طولا وقصرا، لغة وأسلوبا، شكلا ومضمونا، يختلف من رحلة إلى أخرى، تبعا لاختلاف الرحالين من حيث مستواهم، وطرق تفكيرهم، وثقافاتهم، ومستوياتهم العلمية والمعرفية.

3. جمالية المنحى التخييلي في الرحلة:

بعد اكتشافنا للمنحى الواقعي في الرحلة الخدوسية والذي لا يشكل لوحده خطابا رحليا أدبيا وجماليا، إذ لا بد من رافد التخييل لكي تكتمل أركان الرحلة ومقوماتها الفنية، فالتخييل لا ينافي مصداقية الرحلة وواقعيتها..

إنَّ إعادة تسجيل الأحداث والوقائع في الخطاب الرحلي إنما يتشكل في وعي الكاتب والأديب، وهذا يتطلب منه استجلاب أدوات وتقنيات تخييلية لغوية وأسلوبية بديعة، فصياغة خطاب الرحلة مسألة أسلوبية تخييلية في الأساس؛ لأن عمادها التذكر وأداة بنائها اللغة[38].

إن حضور التخييل في الخطاب الرحلي هو من يحدد أدبية الرحلة وانتمائها السردي وعدم وجوده يخرجها من دائرة الأدبية، فتصبح تأريخا ووثيقة تاريخية ووصفا جغرافيا لا يمت بصلة لا بالفن ولا بالسرد.

ومن بين تلك الرحلات التي يمثل التخييل تقنية أدبية سردية لخطابها- رحلة الأديب الجزائري رابح خدوسي، فلقد اعتمد التخييل أسلوبا في صياغة خطاب رحلته.

فمنها الأساليب البلاغية الشائعة مثل قوله واصفا مدينة اسطنبول: " مدينة في ثوب امرأة تقرأ فنجان الماضي!! كاهنة تأخذ من ماضيها سحره، ومن حاضرها حلمه، لتصنع بهما غرائب الآتي من الزمن.."[39]، وأحيانا يستعمل التخييل في وصف الناس وسلوكهم؛ مستعملا التشبيهات والكنايات، وفي جميع ذلك لا تشعر بتكلف بلاغي، وإنما يمتعك بشعرية السرد التي تنقل الرحلة من الخبر والوصف المحايد إلى الأدبية، من ذلك وصفه لمميزات السفر مع المعلمين، يقول: " والمسافر مع المعلمين يحس بذرات الطبشور تملأ المكان، بل وكأنه يراها تخرج مع زفيرهم، لتجتمع على جبين كل واحد منهم، فتشكل تضاريس هقارية تشبه الكثبان الرملية في الصحراء، فيها تظهر قسمات الزمن الجائر، وهضبات الإدارة الخاذلة، ..."[40]

فمن التخييل الساخر المنتقد للذات تحسره لما آل إليه بيت وقصر الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق وذلك أثناء زيارته لسوريا، يقول: " حال بيت الأمير كقصره جوهرتان بلا وميض، تحفتان ومقامان وطنيان في دمشق .. تخلت عنهما ذاكرة الجزائر.."[41].

وينقل رابح خدوسي في رحلاته من خلال التخيل الصور الشكلية من ذلك قوله في وصف الجيزة " هانحن في الجيزة، أبواب المنطقة السياحية موصدة، وشهية المحتالين مفتوحة للنصب بأساليب مختلفة منها تأجير حنطورين (حصان وعربة) إغراءً للتجوال به بين الأهرامات بدخول ميدانها من باب خلفي..."[42] ، بالإضافة للتخيل بواسطة الأصوات والسلوك، ولا سيما صور وأصوات وسلوك البشر، ففي تصويره للناس في بيروت يقول: " الناس في بيروت كالفراش يرقصون، كرجال الثلج يتحركون، وإذا وقفوا لحظة في ثلج النسيان يجمدون.."[43].

فالتخييل في رحلة (رابح خدوسي) هو الأسلوب الذي اعتمده الأديب في في نقل الأشياء؛ بغية توضيح الفكرة الموضوعية التي يريد أن يوصلها، وربط الأفكار مع بعضها بعضا في وحدة وتتابع سردي مشوق؛ ففي وصفه لبيروت أنها " ابتسامة بين شفتي الكون، إذا أشرقت ابتسم الزمان، بيروت أرجوحة القلق المدمن على حبها، تبحث عن ظلها في مرابع

الشمس وثنايا المكان، إنها طفلة السماء المدللة التي ترضعها حليبا قزحيا، يغسل البحر أحزانها كلما احمر وجهها خجلا من شقائق النعمان، أو حمل النسيم ذرات الرماد والدخان فملأ بها ثقوب جبينها على جدران الكنائس والمساجد... بيروت غجرية مثقلة بالجمال، متعبة بزيف الوجدان.."[44]، ففي هذا الفقرة نرى التخييل وترابط الأفكار؛ فقد عبر عن جمال البلد بصورة تخييلية رائعة (ابتسامة بين شفتي الكون) (غجرية مثقلة بالجمال) (متعبة بزيف الوجدان) فكأنه أراد القول بأن بيروت رغم جمالها وابتسامتها فإن الحزن والقلق والزيف يخيم على جوها وأيامها.. ويتجلى إبداع رابح خدوسي في أن كل ذلك أتى في أسلوب سردي متّسق.

غير أنّ هذا التصوير الفني الجمالي الذي يطغى على نص الرحلة لا يجعلها خالية من المنحى التوثيقي، ومن العناية بالتفاصيل والجزئيات التي أثارت انتباه الرحالةَ في البلاد التي زارها. وإنّ قارئ النص الرحلي يكتشف مدى دقةِ وصف الأمكنة التي مرّ بها الرحالةُ/ الروائيُ، وهو وصف لا يسلم، بدوره، من نزوع سردي/روائي في عنايته بجمال اللغة وظلالِها الموحية ونبرتِها الساخرة أحياناً، حينما يتطلبُها مقامُ السرد.

كما سيلمس القارئُ مدى عنايةِ الأديب الرحالة بسوق معلومات ومعارف تتعلق بمهنة التعليم والثقافة، خاصة وأن معظم رحلاه كانت رسمية موجهة من طرف وزارة الثقافة ووزارة التربية والتعليم، ومن ثم نجد النص حافلاً بمصطلحات عالَم التربية والتكوين وأساليب تطويرهما والعناية بهما ومحاولة الاقتداء بالنماذج العربية الناجحة في مختلف المدن العربية التي زارها وتعرف على مستوى التعليم فيها.

وهو بهذه الكيفية يقدم "رابح خدوسي" معلوماته عن الأمكنة التي يزورها، وهي معلومات يعرضها في سياق سردي/وصفي، مشوق قائم على زوايا نظر متنوعة، بحيث يبدأ الكاتب بلقطة بانورامية كبيرة عن المشهد الذي يصوره، ثم يمضي إلى الجزئيات والتفاصيل، وتكثر في الرحلة المشاهد التي تتميز بهذه السمة في التصوير الفني، وكأنّ الروائي يوظف تقنية سينمائية تعتمد اللقطات القريبة واللقطات البعيدة حسب ما يستدعيه سياق التشكيل السردي في الرحلة.

خاتمة:

من خلال وقوفنا عند رحلة رابح خدوسي (انطباعات عائد من مدن الجمال) تبين لنا أن الرحلة تمتلك بعداً واقعيا وأدبيا مميزا؛ وقد توصلنا إلى النتائج الآتية:

- حملت رحلات رابح خدوسي واقعا حقيقيا رآه وعايشه بكل صدق وإحساس مفعم بالنشاط والاخلاص.
- تجلى -بكل وضوح- انبهار الأديب رابح خدوسي من مدن الجمال التي زارها، حيت أبرز إعجابه بها مبرزا معالم التاريخ والجمال فيها.
- وكما تجلى انبهارا بالمدن التي زارها نلمس أيضا حسرةً وأسفًا ونقداً عميقا من طرف الأديب، برز خصوصا عند عقده للمقارنات بين بلده الجزائر والمدن التي زارها، فبلده أفضل بكتير؛ لكنها لم تولِ اهتماما كبيرا بالسياحة والآثار التي ستجعلها تتبوأ المكانة اللائقة بها.
- استطاع رابح خدوسي من خلال رحلاته إبراز تجليات الواقع بكل تفاصيله، مبديا انطباعاته، كل ذلك من خلال وصف ما يراه ويُبصره من مناظر طبيعية، ومن سلوكات إنسانية، ومن مواقفَ ومفارقات، في مشاهد سردية واضحة تخللت الرحلة من بدايتها إلى نهايتها.
- واستطاع من خلال التخييل أيضا جعل نصه الرحلي خطابا أدبيا مميزا، ساعده في التعبير عن الرحلات بأسلوب ممتع مشوق حيوي بعيد عن التأريخ والوصف الجغرافي.

الهوامش والإحالات

[1] عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، الدار العربية للكتاب، 1398ه، ص: 50.

[2] أنيس منصور، أعجب الرحلات في التاريخ، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ط11، 1991، ص: 8

[3] ينظر الطاهر حسيني، الرحلة في العصر العثماني، (أطروحة دكتوراه) إشراف العيد جلولي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات جامعة ورقلة الجزائر، السنة الجامعية: 2014- 2013، ص 23.

[4] ينظر عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006 ، ص 28.

[5] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط ، دت ص 246.

[6] الطاهر حسيني، الرحلة في العصر العثماني، المرجع السابق، ص 61.

[7] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس..، المرجع السابق، ص 7.

[8] رابح خدوسي، انطباعات عائد إلى مدن الجمال، دار الحضارة 2009، ط1، ص: 7

[9] المصدر نفسه، ص 9

[10] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[11] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[12] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[13] المصدر نفسه، ص 9

[14] المصدر نفسه، ص 10.

[15] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[16] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس..، المرجع السابق، ص 175..

[17] المرجع نفسه، ص: 10.

[18] المرجع نفسه، ص: 193.

[19] رابح خدوسي، انطباعات عائد من مدن الجمال، ص: 31.

[20] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[21] المصدر نفسه، ص: 42.

[22] المصدر نفسه، ص: 45.

[23] المصدر نفسه، ص: 59.

[24] المصدر نفسه، ص: 103.

[25] المصدر نفسه، ص: 105.

[26] المصدر نفسه، ص: 105.

[27] المصدر نفسه، ص: 175.

[28] المصدر نفسه، ص: 87.

[29] المصدر نفسه، ص: 88.

[30] المصدر نفسه، ص: 90.

[31] المصدر نفسه، ص: 93.

[32] المصدر نفسه، ص: 93.

[33] المصدر نفسه، ص: 101.

[34] المصدر نفسه، ص: 102.

[35] المصدر نفسه، ص: 179.

[36] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[37] المصدر نفسه، ص: 180.

[38] عبد العليم محمد إسماعيل علي، تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، في إطار جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي (الدورة الثامنة)، ص 31.

[39] رابح خدوسي، انطباعات عائد من مدن الجمال، ص 14.

[40] المصدر نفسه، ص 15.

[41] المصدر نفسه، ص 48.

[42] المصدر نفسه، ص 97-98.

[43] المصدر نفسه، ص 109.

[44] المصدر نفسه، ص 109.

قائمة المصادر والمراجع:

1. عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، الدار العربية للكتاب، 1398ه.
2. أنيس منصور، أعجب الرحلات في التاريخ، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ط11، 1991.
3. الطاهر حسيني، الرحلة في العصر العثماني، (أطروحة دكتوراه) إشراف العيد جلولي، جامعة ورقلة، السنة الجامعية: 2014- 2013.
4. عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006.
5. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط ، دت.
6. رابح خدوسي، انطباعات عائد إلى مدن الجمال، دار الحضارة، 2009، ط1
7. عبد العليم محمد إسماعيل علي، تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، في إطار جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي (الدورة الثامنة).